

## الوالي ناظم باشا أعماله وإصلاحاته في بغداد 1910م - 1911م

م . م سعد عبد الواحد عبد الخضر

المديرية العامة للتربية في محافظة القادسية

### الملخص:

الكتابة عن الشخصيات التي حكمت العراق أخذت سبيلاً تاريخياً ولاسيما وأن وطننا قد مر به خلفاء وملوك وأمراء وولاة فيهم الصالح وفيهم الطالح، وقد اخترنا واحد من تلك الشخصيات التي أدت دوراً مهماً في تاريخ العراق الحديث ألا وهو الوالي (ناظم باشا)، إذ أصبح والياً للدولة العثمانية على العراق في حقبة حرجة من حقب التاريخ الحديث سنة (1910م)، أي في حقبة الصراعات الدولية حول ممتلكات الدولة العثمانية، وفي هذه الحقبة كان العالم على أبواب الحرب العالمية الأولى، من هنا جاءت أهمية شخصية الوالي (ناظم باشا) الذي بلا شك كانت له لمسات مهمة في جميع المجالات .

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد بن عبد الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبعد.

يبدو أن الكتابة عن الشخصيات التي حكمت العراق أخذت سبيلاً تاريخياً ولاسيما وأن وطننا قد مر به خلفاء وملوك وأمراء وولاة فيهم الصالح وفيهم الطالح، وقد اخترنا في بحثنا هذا واحد من تلك الشخصيات التي أدت دوراً مهماً في تاريخ العراق الحديث ألا وهو الوالي (ناظم باشا)، إذ أصبح والياً للدولة العثمانية على العراق في حقبة حرجة من حقب التاريخ الحديث سنة (1910م)، أي في حقبة الصراعات الدولية حول ممتلكات الدولة العثمانية، إذ

أخذت الدول الأوروبية التي كانت تحكم في تلك الحقبة، حقبة الاستعمار والتوسع تطلق عليها اسم الرجل المريض، الذي يراد اقتسام أملاكه. وفي هذه الحقبة كان العالم على أبواب الحرب العالمية الأولى، من هنا جاءت أهمية شخصية الوالي (ناظم باشا) الذي بلا شك كانت له لمسات مهمة في جميع المجالات .

قسمنا هذا البحث إلى أربعة مباحث، تناول الأول الإصلاحات العثمانية وأثرها في العراق، في حين اختص المبحث الثاني (بناظم باشا) وإصلاحاته في العراق، كما استعرض المبحث الثالث إصلاحات (ناظم باشا) في المجالات الأخرى الأمنية والبلدية وغيرها. بينما كان المبحث الرابع يتكلم عن عزل ومقتل (ناظم باشا) ونهايته، وقد اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من المراجع المهمة التي بحثت حقبة البحث، إذ كان كتاب الاستاذ (عباس العزاوي) المعنون تاريخ العراق بين احتلالين، من أهم المراجع التي ارتكز عليها البحث، وكذلك كتاب الدكتور (علي الوردي) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الجزء الثالث الذي كان لا بد من اعتماده لاحتوائه معلومات تاريخية واجتماعية عن حقبة البحث. وكذلك كان كتاب (خيرى العمري) حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث الذي تناول قصة غرام (ناظم باشا) بسارة خاتون، وكتاب (عبد الكريم العلاف) بغداد القديمة الذي استهل فيه ذكر حوادث (ناظم باشا) وإصلاحاته في بغداد، هذا وأنا لا ندعي الكمال فإن الكمال لله وحده، ولكن أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث والله الموفق.

## المبحث الأول

### حركة الإصلاحات العثمانية وأثرها في العراق

### أولاً : حركة الإصلاحات العثمانية وأثرها في الوطن العربي

#### الإصلاحات العثمانية

نتيجة تدهور أجهزة الحكم العثمانية، وظهور بوادر الانحلال في مؤسسات الدولة العثمانية لاسيما العسكرية منها، وتكرر قيام الثورات والانتفاضات في مختلف الولايات، والهزائم العسكرية التي منيت بها جيوشها،

ولوجود فئة من المتأثرين بالحضارة الأوروبية الحديثة، ظهر اتجاه جديد في الدولة يعمل على إعادة الحيوية إليها، وانقسم دعاة الإصلاح إلى فئتين: الأولى: رأت أن العلاج بتطبيق الشريعة الإسلامية والتقاليد العثمانية الأصيلة. والثانية: اعتقدت بأن إصلاح الدولة العثمانية يلتزم تبني الأنظمة الأوروبية المعاصرة، ويظهر أن نجاح البلدان الأوروبية آنذاك في العلوم العسكرية وفي تطوير انظمتها الاقتصادية، رجحت كفة هذه الجماعة، لذا أصبحت حركة الإصلاح تهدف إلى تطبيق الأنظمة الأوروبية الحديثة في مختلف مجالات الحياة، واقتصرت الإصلاحات الأولى على الجيش، ثم بعدئذ النواحي المختلفة بالإدارة والتعليم. ومع مجيء السلطان (أحمد الثالث) (1703 - 1730م) أخذت محاولات الإصلاح تأخذ طريقها بصعوبة وسط التحديات القاهرة للقوى المعارضة للإصلاح التي وقفت على رأسها الانكشارية<sup>(\*)</sup>. وفي العام (1718م) نصب (إبراهيم باشا) صدراً أعظم، وأخذ يعمل طوال اثنتي عشرة سنة على ادخال عوامل الحضارة الغربية إلى الدولة العثمانية، وقد حث السلطان (أحمد الثالث) على البدء بالإصلاحات العسكرية، فتحسن سلاح المشاة وصناعة السفن، وبدأ الصدر الأعظم بإرسال البعثات العسكرية إلى فيينا وباريس، وبدأت صورة الاتصال مع أوروبا واضحة في الحياة الاجتماعية والثقافية العثمانية<sup>(1)</sup>. وقد بدأ الإصلاح الفعلي للجيش في عهد السلطان مصطفى الثالث (1757 - 1774م).

فنظم البحرية والمدفعية على وفق الأساليب والأسلحة الأوروبية مستعيناً بطائفة من الضباط والخبراء الأوربيين. أما الانكشارية فلم يتعرض لهم آنذاك لقوتهم وقدرتهم على مقاومة الإصلاح. ثم جاء قيام الثورة الفرنسية سنة (1789م) ليؤكد ضرورة الإصلاح، لاسيما بعد غزو الفرنسيين مصر العام (1798م)، وهي ولاية عثمانية، إذ رأى العثمانيون تفوق الجيوش الفرنسية على جيوشهم وجيوش المماليك معاً. ويلاحظ في الوقت نفسه، أن طليعة الأفكار التي

وصلت إلى العاصمة العثمانية في بدء حركة الإصلاحات اشتملت على مبادئ الثورة الفرنسية (حرية، وأخاء، ومساواة)<sup>(2)</sup>.

زاد اهتمام العثمانيين بالإصلاح في عهد السلطان (سليم الثالث) (1789م - 1808م) والذي يعدّ من أكفأ السلاطين وعياً وإطلاعاً على النظم الأوروبية، وقد دعا عدداً من قادة الفكر والسياسة في الدولة العثمانية لمعرفة آرائهم في معالجة أسباب الضعف في الدولة العثمانية، فأكدوا جميعاً ضرورة الإصلاح العسكري وفي سنة (1792م) صدرت سلسلة من التعليمات والأنظمة الجديدة عرفت باسم (النظام الجديد)، وقد تضمن هذا النظام خطوات لإصلاح الإدارة والمالية، ومن أهم الإصلاحات، تكوين جيش جديد من المشاة والبحرية على وفق الأساليب الحديثة، فافتتحت لذلك مدارس عسكرية وبحرية يحاضر فيها خبراء فرنسيون. وقد شرع في إنشاء ثكنات خاصة متعددة في مدينة (سكوناري) المقابلة (لإستانبول). وبدأ باثني عشر ألف جندي من المشاة، وخمسة آلاف من الخيالة، وكذلك عمل على إنشاء عدد من المدارس العالية والفنية الحديثة، كما أسس سفارات عثمانية دائمية في العواصم الأوروبية<sup>(3)</sup>. ولما جاء السلطان (محمود الثاني) (1808 - 1839م) اعتقد أن إصلاحاً عاماً لا يمكن أن يتم قبل التخلص من أعداء الإصلاح، وفي مقدمتهم الانكشارية الذي كان يعتقد أنها أخطر مشكلة يواجهها الإصلاح، فقد حاول إعادة تنظيمهم، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وأول عمل إصلاحي قام به (محمود الثاني) هو تحسين المدارس العسكرية الجديدة التي أسسها (سليم الثالث)، والتي كانت ترمي إلى تدريب الضباط والجنود بالأساليب الأوروبية الحديثة بغية تشكيل جيش جديد منهم، وبمرور الزمن استعان (محمود الثاني) بأفراد الجيش الجديد في القضاء على الجيش الانكشاري وإلغائه<sup>(4)</sup>.

انجز السلطان (محمود الثاني) برنامج إصلاحات وضعت فيها الخطوط الرئيسية التي سار عليها مصلحو الدولة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن

العشرين الميلادي. ففي حقل التعليم أسس (محمود الثاني) عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية الجديدة، فكان للمعلمين حضور في عملية الإصلاح، كما أسس مدرسة للحقوق وأخرى للطب. وفي عهده أرسل نحو مائة طالب للدراسة في أوروبا، وظهرت في عهده جريدة الحكومة الرسمية، (تقويم وقائع)، فضلاً عن ذلك شهدت مدة حكمه إعادة النظر بنظام الادارة المركزية للدولة، فأنشأ وزارات الأوقاف والخارجية والداخلية، وأسس مجلس للوزراء على غرار ما هو موجود في الدول الأوروبية، وفتح أول بريد بين اسكدار وأزمير، وأسس مجلس أحكام عدلي، منح وظائف شبه قضائية معتمدة على القوانين الفرنسية، وأصدر قانوناً للعقوبات، كما أدخل الزي الأوروبي في الجيش العثماني، وأسس مجلس (شورى عسكري)، وذلك لغرض تنظيم الأمور العسكرية، ثم قام بإلغاء الطريقتين الصوفيتين، (الطريقة البكتاشية) و(الطريقة المولوية) وذلك لارتباطهما بالانكشارية<sup>(5)</sup>.

وبعد وفاة (محمود الثاني) سنة (1839م) خلفه ابنه السلطان (عبد المجيد الأول) وقد بدأت مرحلة جديدة من حركة الإصلاحات في الدولة العثمانية امتدت حتى سنة (1877م) عرفت باسم التنظيمات، وقد بدأت هذه الحركة بإعلان السلطان (عبد المجيد) البيان الإصلاحي المسمى (خط شريف كولخانة) سنة (1839م)، وقد تأثر هذا السلطان بعدد من المصلحين الذين شغلوا منصب الوزارة أمثال (رشيد باشا) وغيره<sup>(6)</sup>. كما شهدت هذه المرحلة إلى جانب ضغط المعارضين للإصلاح تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، لقد كان هدف (خط شريف كولخانة) ضمان حقوق أفراد الدولة العثمانية بصرف النظر عن معتقداتهم الديني، أو اختلافهم القومي، ومما جاء فيه: (إن الحكومة ستقف ضد أي تهديد يقع على حياة أو كرامة أو ملكية الأفراد العثمانيين، وأن المهتمين سواء أكانوا مجرمين عاديين أم سياسيين، سيحاكمون بصورة علنية). ومن ناحية الضرائب أعلن البيان أنه (ستوزع هذه الضرائب

في المستقبل بصورة عادلة على جميع طبقات الشعب، وأن طريقة جمع الضرائب ستتحسن). وأخيرا تعهد خط شريف كولخانة بتنظيم التجنيد وتحديد مدة الخدمة العسكرية الإجبارية<sup>(7)</sup>.

## ثانيا : إصلاحات الوالي مدحت باشا وأثرها في العراق

يعدّ نظام الطابو أبرز أعمال (مدحت باشا) الإدارية والاقتصادية، وكان الهدف الرئيس من هذا النظام محاولة إيجاد حل لمشكلة العشائر، ووضع حد لثوراتها المستمرة، وتحويل أفرادها إلى مواطنين مستقرين، وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الري. وقد امتدت سياسة توطين العشائر التي اتبعها مدحت باشا إلى أماكن متعددة<sup>(8)</sup>.

لكن هذه السياسة أدت إلى أن يتحول شيوخ العشائر إلى ملاكين للأراضي، ولم تعد العلاقات داخل العشيرة تعتمد على المساواة بين أفرادها، بل أصبح مقدار ما يملك الشخص المعيار الأساس للتمييز بينهم، وأخذت الحكومة تستعين ببعض رؤساء العشائر لتحصيل الضرائب، وبذلك حققت الحكومة الهدف السياسي الذي توخته من إجراءات توطين العشائر، وهو أن الحكومة تستطيع أن تجبي الضرائب وتفرض الجندية على القبائل المستقرة بشكل أسهل مما لو كانت متقلبة<sup>(9)</sup>.

في ميدان المواصلات، أعاد (مدحت باشا) تشكيل الشركة الحكومية المسماة (الإدارة العثمانية النهرية)، وأصلح بواخرها القديمة واشترى بواخر جديدة ذات حمولات كبيرة. كما أسس لهذا الغرض محطات للوقود في مسقط وعدن وبندر عباس وبوشهر. وبعد هذا صارت البواخر العثمانية تنتقل بين آونة وأخرى بين البصرة واسطنبول عبر قناة السويس التي افتتحت سنة (1869م)<sup>(10)</sup>. وعلى صعيد النقل الداخلي أنشأ مدحت باشا (ترامواي) بين بغداد والكاظمية. وفي عهد (مدحت باشا) أنشئت المدارس الحديثة في العراق، وأول مدرسة أسسها هي المدرسة الرشدية العسكرية، وقد قبل فيها التلاميذ

المتخرجون من المدارس الدينية، وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات، يدرس في أثنائها الطلبة اللغتين العربية والتركية والتاريخ والجغرافية والحساب والخط والدين، وقام بعد هذا بإنشاء المدرسة الإعدادية العسكرية ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية، ويحق لخريجي هذه المدرسة الالتحاق بالكلية العسكرية في اسطنبول، حيث يدرسون فيها ثلاث سنوات يتخرجون من بعدها ضباطاً في الجيش العثماني، فضلاً عن هاتين المدرستين العسكريتين، أنشأ (مدحت باشا) مدرسة الصنائع، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات، يتلقى الطلبة في أثنائها دروساً تثقيفية عامة، ويتخصصون في إحدى المهن كالتجارة والخياطة والطباعة<sup>(11)</sup>. كما فتح المدرسة الرشدية الملكية، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات. إن اهتمام (مدحت باشا) بنشر التعليم في العراق، انعكس من خلال تزايد النسبة المئوية للمتعلمين؛ ففي سنة (1850م) لم تكن نسبتهم تزيد على نصف بالمائة من سكان المدن، في حين أصبحت النسبة سنة (1900م) تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمائة. لقد كان مدحت في طليعة الولاة العثمانيين الذي اهتموا بأمور الطباعة والصحافة، فقد أسس مطبعة حكومية، وأصدر جريدة الزوراء التي تصدر مرتين في الأسبوع باللغتين العربية والتركية، وقد استمر صدورهما حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة (1917م)، وفي عهد (مدحت باشا) بنيت مدينتا الناصرية والرمادي<sup>(12)</sup>، ومن أعماله كذلك أنه بنى دوراً للحكومة، وأسس مزرعة أنموذجية أو أرسل المهندسين لتنظيم الري، وبنى المستشفيات وباشراً بتطبيق التجنيد الإلزامي، وقام بإلغاء الضرائب الطالبية التي تؤخذ على الزوارق في الأنهر، ورؤوس النفر، كما ألغى نظام الالتزام الذي أضرب بالفلاحين، إذ يقوم الملتزم بجمع الضرائب منهم، ما جعل الفلاحين يتركون الأرض، كذلك ضريبة الاحتساب أي رسوم الدخولية على البضائع، كما ألغى ضرائب الكودة والطمغة، وقام بتنظيمها بحيث تؤخذ مرة واحدة، وبهدف خلق نوع من الاستقرار في مجال الزراعة وتحسين الإنتاج نظم ضرائب بساتين النخيل<sup>(13)</sup>.

## المبحث الثاني

### الوالي ناظم باشا وإصلاحاته في بغداد

#### أولاً : ناظم باشا واليا في بغداد

يبدو أن الوالي (ناظم باشا) من الولاة الذين خلدت مآثرهم وأعمالهم في تاريخ الذين عملوا في بغداد، وحري بنا البحث عن أيام حكمه، وما نتج عنها من إصلاحات شاملة، دخل ناظم باشا بغداد بعد أن تطلعت إليه الأنظار، وذلك يوم الخميس ربيع الآخر سنة (1328 هـ - 1910م)، وهو مزود بصلاحيات واسعة لحكم الولايات العراقية الثلاث بغداد والبصرة والموصل. ولم يحل ببغداد بعد الوالي (مدحت باشا) واليا نال شهرة واكتسب ذكرا (كناظم باشا)، ولما تربع على عرش الولاية اتصل برؤساء بغداد، وجس نبضهم، وشمر عن ساعد الجد والعمل<sup>(14)</sup>.

وفي يوم الأحد 28 ربيع الآخر هجرية احتفل بقراءة فرمان بتعيين (ناظم باشا) واليا لولاية بغداد، وقائدا للفيلق السادس، فكان الاحتفال مهيبا تلا فرمان (مراد بيك المكتوبجي)، وأعقبه بالدعاء السيد (رشيد افندي)، وعزفت الموسيقى، وعاد الوالي إلى محله في القشلة. وقد نص فرمان على أن يكون (ناظم باشا) واليا على بغداد فضلاً عن عضويته في مجلس الشورى العسكرية، وقيادة الفيلق السادس العثماني، وإعطائه صلاحيات واسعة بإجراء تغييرات في أمراء وضباط ومأمورية الولاية، ومن يراه غير كفاء في إدارة عمله<sup>(15)</sup>.

أما ولايتا الموصل والبصرة فكونهما داخلتين ضمن دائرة الفيلق السادس، وبالرغم من أن كل وال من ولاتهما مسؤول عن ولايته بأمر الإدارة والتنظيم، فعليهم أن يكونوا تابعين للفريق (ناظم باشا) في ما يخص الأمن والضبط العسكري بالمخابرة، أو بأي وسيلة أخرى. وقد جرى تبليغ والي الموصل ووالي البصرة من الباب العالي في ذلك<sup>(16)</sup>.



اهتمت الحكومة العثمانية في استانبول بأمن العراق، وزودت (ناظم باشا) بالضباط الأكفاء، ومنحته صلاحية استعمال بعض جيوش الفيلق الرابع وأمرته باعتماد القوة لإخماد ثورات العشائر المستمرة ضد السلطة العثمانية. وقد بالغ العثمانيون في تعظيم شأنه، حتى نال سمعة كبيرة، وبالوقت نفسه باستعمال العدالة التامة، وإعلان الحرية والمساواة في تنظيم الوظائف والمعاملات حسب القانون الأساسي (الدستور)، وأن تجري الدقة في هذا الأمر المهم<sup>(17)</sup>.

وقد وردت برقية من نائب كربلاء الحاج (عبد المهدي الحافظ)، يبشر فيها بتعيين الفريق (ناظم باشا)، أحد أعضاء الشورى العسكرية واليا لولاية بغداد وانضمام قيادة الفيلق السادس لعهدته. ومن هنا نجد أن الشعب العراقي في تلك الحقبة يريد أن يكون الوالي حازما، حتى يتمكن من تقويم المعوج، وإصلاح الفساد، وحماية الأرواح والأموال في عموم الانحاء. وذلك لأن ثورات العشائر عمت انحاء البلد، وصار الجيش لا يستطيع القضاء عليها، فقد جرت أعمال لا يمكن السكوت عليها كالقتل والسلب والنهب، فكانت عشائر الدليم وعشائر زوبع وعشائر أخرى كالمنتفق والخزاعل لم تستقر على حالة، وبالوقت نفسه فقد كانت جهات رافضة لتعيين (ناظم باشا) واليا على بغداد على أساس أنه لا يفهم العربية، إذ لا يمكن أن يطلع على أحوال الأهالي والاستماع إلى شكاوهم إلا بوساطة (مترجم)، ولكن هذه الاعتراضات لم تجد لها من يسمعها<sup>(18)</sup>.

## ثانيا : إصلاحات الوالي ناظم باشا في المجال العسكري

وصف الوالي (سليمان نظيف بك) الفريق (ناظم باشا) بأنه أعظم جندي في الجيش العثماني، وعند اعتلائه قيادة الفيلق السادس وولاية بغداد، فقد قام بأعمال عسكرية مهمة، فسعى إلى تجديد الحياة العسكرية في الدولة، وأخذ ينظم الجيش، ويزوده بأسلحة حديثة. وجدد البسته وجعل له معسكرا خارج بغداد،

وجمعه فيه، ومنح الجنود رواتبهم المتأخرة، وكان قبل إعلان الدستور (1876م) عندما تحل مواسم الأعياد يهجم الجنود على أسواق بغداد لنهب ما في الحوانيت، لعدم دفع رواتبهم، وكان هذا النهب يسمى (الفرهود)، ثم قام (ناظم باشا) بجمع العساكر (أي الجنود) وعمل لهم بين الآونة والأخرى (مناورة عسكرية) في تدريب ميداني في شمال (باب المعظم)، وكان تتعالى فيها أصوات المدافع والرشاشات، وأزيز الرصاص، وصراخ الجنود، وبذلك أخاف الأشقياء من أهل المدن وكذلك العشائر حيث امنّت الطرق (19).

يبدو أن العراق في عهد الوالي السابق (شوكت باشا) شاعت فيه الفوضى واضطراب الأمن، وكثر عصيان العشائر، فكانت قبائل الهماوند الكردية تعبت في أطراف كركوك وجهات السليمانية، وقبائل المنتفك رافعة راية العصيان مستخفة بالدولة والحكومة، وعشائر الديوانية متمردة تجاه الحكومة بالاحتقار، وتمنع عنها الرسوم الأميرية، وعشائر بني لام من الكوت إلى العمارة تقطع على البواخر ووسائل النقل النهرية بين البصرة وبغداد، و(سعدون باشا) مستتر في البادية، وغاراته هنا وهناك، ثم أن الأمن في بغداد نفسها كان كثير الاضطراب واضح الخلل، ففي كل ليلة كان اللصوص يفتكون بالدرك والشرطة والنواطير، فيهب الناس من نومهم على أصداء البارود وأزيز الرصاص، لذلك أقدمت الحكومة العثمانية على تعيين رجل حازم من طراز خاص هو الفريق (ناظم باشا)، وجمعت له قيادة الجيش لما ضمت إليه ولا يتي البصرة والموصل علاوة على ولاية بغداد، ومنحته سلطة واسعة لم تكن للولاة قبله، وأذنت له بصرف أربعين ألف ليرة زيادة سنوية ليتلافى بها ما يحتاج إليه إصلاح البلاد من نفقات إضافية، وبدأت الجرائد البغدادية منذ منتصف نيسان (1910م) تنشر أنباء تحرك (ناظم باشا) نحو بغداد مرحلة بعد مرحلة، وفي 6 آيار وصل إلى بغداد عن طريق الفلوجة ومعه موكب ضخم (20).

من انجازاته العسكرية الأخرى تأسيس المخافر، وتأمين الأطراف، إذ قام بجمع الفتاوى من العلماء لمنع الغزو، وقتل الأنفس، ونهب الأموال، وقد أخذ الفتاوى من علماء الشيعة الذين افتوا بمنع العشائر من هذه الأعمال، وكذلك علماء السنة فكان لها أثرها البالغ، فأرعب العشائر وولد فيهم الخوف، ومن الجهة الأخرى نرى الأهليين غافلين عما يفرضه الواجب، فلم يستفيدوا من المجالس العامة للبلدان (المجلس العمومي)، ولا من النواب لأنهم لم يقع اختيارهم على من يصلح، وفي الغالب كانوا يراعون الصلاح الديني، فيختارون الواعظ، والعالم الديني، أو المتنفذ، المتحكم<sup>(21)</sup>.

وكان العراق وهو خزانة الأطعمة، يكاد أهله يموتون جوعاً، وكان موطن الفيالق، فصار يتحكم به البدو، فلا يستطيع إيفام أغراضه وآماله، وبلغ به من سوء الإدارة والتخريب ما الله عالم به، وصار الأمل معقوداً بهذا الوالي وزاد النشاط، وتولدت حركة في السوق من جراء قدومه، إذ مدحه صاحب مجلة العمران (عبد المسيح الانطاكي) بقصيدتين إحداهما في ديوانية الحضرة الكيلانية بعد أن صلى الجمعة في الحضرة الكيلانية، وأخرى خاصة، ومثل هذه لا تعدل الملك، وأن مدح الشعراء لا يغير الواقع، إذ إنه من مشاهير العسكريين، وقد كتب لهذا البلد أن لا يتولى أمره عسكري، أو من ينال السلطة العسكرية ولو كان مدنياً<sup>(22)</sup>.

وهذا الوالي جعل باكورة أعماله إثر ورود بغداد بنحو أسبوع مهمة العشائر، ودفع غوائلها فحصل كذلك على فتاوى من العلماء في لزوم تأديب من يستحل الغزو المحرم في الشريعة، فصدرت هذه الفتاوى بقتل المجاهر بالظلم، أي أخذ الأموال من الناس علانية بطريق الغلبة والقهر، كما يفعله عصاة الأعراب وغيرهم من النهب والغارة<sup>(23)</sup>.

## المبحث الثالث

### إصلاحات ناظم باشا في المجالات الأخرى

#### أولاً : إصلاحاته في مجال تحقيق الأمن

إن أهم عمل قام به (ناظم باشا) هو العمل على قمع الفوضى التي كانت سائدة في العراق، ومنع القتال الذي يجري بين العشائر وهي العادة التي كانت تسمى آنذاك (الغزو).

عندما وصل ناظم باشا إلى بغداد كان أول ما فكر فيه وأهتم له هو وضع خطة كافية لمنع الغزو<sup>(24)</sup>. أرسل في البداية إلى رجال الدين من السنة والشيعة جميعاً فاكثبهم الفتاوى في تحريم الغزو، وقد كتب هؤلاء فتاويهم كما أراد (ناظم باشا)، إذ ذكروا فيها أن الغزو عادة جاهلية مخالفة للإسلام، وهي تؤدي على قتل النفوس ونهب الأموال وغير ذلك من الأمور التي لا يختلف اثنان على سوء مغبتها وأضرارها المادية والمعنوية، فضلاً عن مخالفتها للشرع الشريف، ويستحق فاعلها العقاب الشرعي والقانوني. وقد شارك في إصدار هذه الفتاوى من علماء السنة المفتي (محمد سعيد الزهاوي)، والسيد (عبد الرحمن النقيب)، والشيخ (غلام رسول الهندي)، والسيد (محمد نافع الطبقجلي)، والشيخ (عبد الوهاب النائب)، والشيخ (محمد سعيد النقشبندي)، والسيد (محمود شكري الآلوسي)، ومن علماء الشيعة الملا (كاظم الخراساني)، والشيخ (عبد الله المازندراني)، والسيد (محمد القزويني)، والسيد (محمد إسماعيل الصدر)<sup>(25)</sup>.

كان (ناظم باشا) مدركاً أن الفتاوى الدينية وحدها لا تردع العشائر عن الغزو، ولم يكن الحافز الديني لوحده في يوم من الأيام مانعاً من قيام الناس بما اعتادوا عليه من أعمال إعتدائية، ولهذا اتخذ (ناظم باشا) طريقة أخرى لإرهاب العشائر، وهي أنه استدعى إلى بغداد جميع الأفواج العسكرية التي كانت متفرقة في مختلف أنحاء العراق وأعد لهذه الأفواج معسكراً مؤقتاً في موضع قريب من موقع بغداد الجديدة الحالية المسماة (وردي كاه)، أي محل الجيش، ثم أخذ

يخضع الجنود إلى تدريب صارم لكي يعمل منهم قوة عسكرية مدربة. وأمر (ناظم باشا) بدعوة رؤساء العشائر إلى بغداد ليكونوا بضيافة الحكومة فيها ونصبت لهؤلاء الرؤساء خيام في مكان قريب من محل الجيش، وقام باستعراض مهيب للجيش كله شهده رؤساء العشائر كما شهده علماء بغداد وأعيانها وكبار الموظفين وقناصل الدول الأجنبية<sup>(26)</sup>.

ثم وقف (ناظم باشا) فلقى خطاباً بالتركية وكان المترجم بجانبه يترجم الخطاب إلى العربية، وكان الخطاب مليئاً بالتهديد الشديد، وبعد الانتهاء منه أمر (ناظم باشا) بتوزيع الخلع على رؤساء العشائر، من عبايات وغيرها حسب العادة الجارية، وكان ذلك يوماً مشهوداً في بغداد لم يشهد له مثيل من قبل، كان من نتائج هذا العمل أن استتب الأمن في بغداد وفي مختلف أنحاء العراق وازدادت سمعت (ناظم باشا) ارتفاعاً لدى الناس، وصار اسمه يرهب الأشقياء والعشائر العاصية، وبدأت الإشاعات تدور بين الناس حول تجوله متكرراً ليفتش الأمور بنفسه، واختلق بعضهم الأوهام في ذلك كأن يقول أحدهم أنه شاهد فارس في المكان الفلاني هو (ناظم باشا) بعينه فيصدق السامعون وقد يزيّدون قليلاً أو كثيراً.

ذكر (إبراهيم صالح شكر)، وكان قد أدرك عهد (ناظم باشا) فقال: إن البغداديين نعموا بالأمن في ذلك العهد بحيث صاروا يخرجون في المساء رجالاً ونساء من غير خوف إلى خارج الباب الشرقي، فيتمتعون حتى (قهوة العبد) عند (بستان الخس)، وهذا أمر لم يكن مألوفاً في بغداد من قبل لكثرة اللصوص في تلك المنطقة<sup>(27)</sup>.

ظن كثير من الناس في ذلك الحين أن استتباب الأمن سيدوم، وأن أيام الشقاوة واللصوصية والعصيان قد زالت إلى الأبد ولن تعود، وهذا تقاؤل لم يكن له أساس من الواقع الاجتماعي، إذ ليس من السهل على الناس الذين اعتادوا على قيم معينة طيلة أجيال متوالية أن يتركوها فجأة بين عشية

وضحاها، وأنهم قد يتركونها مدة قصيرة من الزمن في حالة الإرهاب الشديد، ولكن الإرهاب يجب أن يدوم مدة كافية من الزمن لكي يعطي ثماره، وإلا فإن الناس سيعودون إلى ما كانوا عليه حالما يزول الإرهاب عنهم، وهذا هو ما وقع فعلا في إثر عزل (ناظم باشا) من ولاية بغداد سنة (1911م)<sup>(28)</sup>.

صدق من قال، الحاكم الجائر خير من الفوضى، ويذكر (عبد العزيز القصاب) عندما كان قائمقام السماوة في مذكراته هذه الحادثة فيقول : أخبرني ضباط مركز الشرطة بقرار الوالي (ناظم باشا) بسحب الفوج الموجود في السماوة إلى بغداد، وبعد رجوعي من توديع الجيش رأيت في طريقي رجلاً جريحاً، ودلالاً سرقت عباءته كان يريد بيعها، وبزازاً يهودياً يبكي لسرقة دكانه المليء بالقماش، وكان جميعهم يرددون قول المعتدين بأن الحكومة ولت بذهاب الجيش، وليس هناك خوف من الحكومة، فأخذت مجموعة من الجندرمة إلى السوق، وجلست في محل البهبهاني صاحب ماكينة كبس الصوف والغضب باد على وجهي، وتجمع الناس من حولي منتظرين ماذا أفعل، وطلبت حضور المختارين ورؤساء المحلات، وأحضرت المعتدين وبدأت أضربهم بعصاي واحد بعد الآخر حتى رجاني رؤساءهم بالعفو عنهم، وقد وصلتنا أخبار الوالي (ناظم باشا) التي تبهر العقول استعداداً لضرب أي تمرد ضد الدولة والقانون، وأينما يقع وأعمال أخرى رائعة<sup>(29)</sup>.

## ثانياً : إصلاحاته في مجال البلدية

ومن أعمال (ناظم باشا) التي سجلت بمداد الفخر والإعجاب، تنظيم الأزقة الضيقة، وعدم طرح أوساخ (زباله) البيوت فيها، وعمل عربات خشبية أعدت لحمل تلك الأوساخ ونقلها خارج المدينة بعد أن كانت تحمل بوساطة الحمير، والذي يكلف بحمل الأوساخ يقف صباحاً في المحلة وبيده (جرس) كبير يدق به دقات متوالية تنبئها لذوي البيوت ليخرجوا ما لديهم من الأوساخ فيتناولها ويلقيها في العربة المعدة لحمل الأوساخ، وهكذا تعود أهل بغداد على

تلك الحالة المفيدة، كما أمر بوضع ما يستخرج من المراحيض في علب (تانكيات) من الصفيح وطرحه في المحل المعد له بدلاً من وضعه في (الظروف) المحمولة من جلود الغنم، التي تحمل بواسطة الحمير بوضع يلفت النظر<sup>(30)</sup>.

أما الكلاب السائبة : فلا ننسى كلمة (الحبل) والتي مضى عليها سنوات عدة، والحبل هو الذي تربط به الكلاب السائبة التي يقبض عليها وإيداعها في محل أعد لها قرب مقبرة اليهود ببغداد، والشيء المضحك أن كل كلب في ذلك العهد يسمع كلمة (حبل) يهرب، فترى الأولاد الصغار حينما يشاهدون كلباً ينادون (حبل حبل) فيهرب الكلب لمجرد سماعه هذه الكلمة<sup>(31)</sup>.

فتح شارع النهر : ولم تكن أعمال الوالي ناظم باشا مقتصرة على هذا فقط، بل تعدت إلى مشاريع عمرانية أخرى منها فتح شارع النهر وأمد بفتحه على القنصلية الانكليزية وشرطها شطرين، وهذه القنصلية يرجع تاريخها إلى سنة (1797م)، وتتمتع بامتيازات لم يبلغها غيرها من القنصليات فلها 12 قواصاً وعدد من الجنود المسلمين الهنود يبلغون 60 جندياً، وكان تحت تصرف هذه القنصلية باخرة صغيرة يقال لها (كوميت)، وأهل بغداد يسمونها (مركب كمر) وكانت ملازمة لهذه القنصلية ليلاً ونهاراً<sup>(32)</sup>، وأمر الوالي ناظم باشا بجمع العشائر لعمل سد ضخم وبضمنهم عمال بغداد، وهذا السد يحيط بمدينة بغداد من شرقيها ليقبضها من الغرق وقد سمي هذا السد باسمه وإلى الآن يسميه أهل بغداد (سدة ناظم باشا)، وبهذا العمل ساعد أبناء العشائر وأهل بغداد مساعدة كانوا أحوج الناس إليها<sup>(33)</sup>.

افتتاح مستشفى مير الياهو (الياس) : احتفل الوالي (ناظم باشا) بفتحه خارج باب المعظم بدعوى من حاخام اليهود داود بابو والمؤسس، ففتح الوالي بيده بابه، وحضر الاحتفال جملة من الأشراف والأعيان في 19 شعبان سنة 1328 هـ وأن مؤسسه مير الياهو<sup>(34)</sup>.

الإفطار في رمضان : وأحسن عمل له يشكر عليه، فقد مر في عهده رمضان، ولم نر من يتجاهر بالإفطار، فكل من تراه الشرطة (البوليس) مفطر تجلبه إلى مركزها، وبعد أن تجلده عشر جلادات تحكم عليه المحكمة بالحبس لمدة شهر فكان لرمضان في زمنه حرمة عظيمة ومكانة مرموقة<sup>(35)</sup>.

وفي أيامه كتب (جميل صدقي الزهاوي) مقالة صحفية في جريدة المؤيد المصرية في عددها الأسبوعي في 7 آب (1910م) بعنوان (المرأة والدفاع عنها)، شرح فيها مضار الحجاب، وأورد بعض المظالم التي تزرع تحتها المرأة المسلمة، فوقف رجال الدين وعملوا ضجة وخرجوا في مظاهرة وكان على رأسهم السيد (مصطفى الواعظ) نائب الديوانية، وكان عائداً إلى بغداد أثناء عطلة مجلس المبعوثان العثماني، فذهب الأخير إلى الوالي ناظم باشا، وأوضح له ما يترتب على مقالة الزهاوي المارق من الدين، فلبى الوالي طلبه وعزل الزهاوي من وظيفته وهو مدرس لمجلة الأحكام العربية في مدرسة الحقوق، ثم أصدر الشيخ (محمد سعيد النقشبندي) كتاباً رد فيه على مقالة الزهاوي بعنوان (السيف البارق في عنق المارق)<sup>(36)</sup>. لقد سيطر الخوف والرعب على الزهاوي لأنه كان يخشى أن يعتدى عليه أو يقتله الغوغاء، واعتزل في بيته لا يخرج منه، ويروى أن ثلاثة من أشقياء بغداد طوقوا بيت الزهاوي ليلاً، ولما خرج لهم طلبوا منهم أن تخرج زوجته معهم إلى القهوة فرفض الزهاوي ذلك فأجابوه : أذن كيف تريد من بنات الناس أن يرفعن الحجاب ويختلطن بالرجال، فأخذ الزهاوي يحلف لهم بالله ويوعدهم بأنه سوف يسمع قولهم، ولا يعود إلى نشر هذه الأفكار<sup>(37)</sup>.

إنشاء غرفة تجارة بغداد : كانت أول غرفة تجارة تعمل بصورة صحيحة ثم صارت مرجعاً للأمور التجارية والاقتصادية، وأن تكونها كان بسيط جداً وعين لها رئيساً وهو مدير شعبة المصرف العثماني، وأعلنت لزوم تسجيل الشركات والحصول على إجازة بالاشتغال اعتباراً من 26 جمادى الأولى سنة 1328 هـ<sup>(38)</sup>.



- ومن أعمال الوالي ناظم باشا :
- 1- دفن الخندق الذي حول بغداد .
  - 2- انشاء سدة ناظم باشا لحماية بغداد من الفيضان .
  - 3- استتباب الأمن في نواحي العراق .
  - 4- وكان يأمل أن يقوم :
  - أ- تشغيل ترامواي بغداد الكاظمية بالكهرباء .
  - ب- انشاء جسر حديدي لبغداد .
  - ج- تسيير بواخر لنقل المسافرين والبضائع .
  - د- اسقاء الولاية بماء مقطر .
  - هـ- إصلاح وتوسيع طرق المدينة وشوارعها .
  - و- بناء المستشفيات .
  - ز- عمل حدائق عامة ، إذ قدم لائحة بذلك<sup>(39)</sup> .

## المبحث الرابع

### عزل ناظم باشا ومقتله

#### أولاً : ناظم باشا وسارة خاتون

هذه حكاية وقعت أحداثها في بغداد منذ نصف قرن، وكانت بطلتها إلى أيام قريبة على قيد الحياة سيدة عجوز يشهدها الناس في غدوها ورواحها صباح كل يوم تدب على الأرض سعياً وراء مصالحها .

ابتدأت كأي حكاية عاطفية أخرى بنظرة وابترسامة، ثم لم تلبث الألسن أن استغلتها وأحاطتها بالإشاعات والأقاويل، فإذا بها تصبح مع مرور الأيام أسطورة بين والي عثماني استحكم به الترف والطيش، وبين فتاة جميلة تقف أمامه بكل ما تملك من جرأة اعتدادا بكرامتها واعتزازا بنفسها، ما كان يومها حديث الناس في بغداد. وقد اغرت هذه الحكاية وما فيها من طرافة ومتعة البعض على تناولها، فأشار المهندس المشهور (وليم ويلكوكس) الذي عاش في

بغداد تلك الحقبة في كتابه ستون عاما في الشرق، الذي لم يترجم كله إلى الآن، إشارة عابرة إليها كما هزت ملابساتها<sup>(40)</sup>، شخصيتين ادبيتين فألهمت شاعر بغداد (جميل صدقي الزهاوي) بقصيدة رائعة وأوحت إلى (مسز دراور) بقصة خيالية استمدت أصولها من هذه الحكاية بعد أن غيرت وقائعها وأدخلت عليها من التحوير ما أبعداها عن جوهر أحداثها الواقعية، ولعلها تغري هواة السينما من المخرجين بتقديمها إلى الستار الفضي، ففيها من المواقف الرائعة والصور الممتعة ما يشيع على ذلك<sup>(41)</sup>.

ويقول العمري: وقد خطر إلي أن أقصد يوما بطله هذه الحكاية لأسمع من فمها وقائعها فسعيت إليها في دارها الواقعة في بغداد الجديدة، وذلك في يوم 23 آذار (مارس) عام 1958م، وجلست إليها جلسة طويلة روت إليّ خلالها حكاياتها وهي تسترجع إلى ذهنها ذكريات عزيزة عليها تذوقت حلوتها وتجربت مرارتها، وأنا حين أسرد هذه القصة لا أعتمد على أقوال (البطلة) فهي امرأة تستولي عليها في بعض المواقف مشاعر الخيال والغرور، وإنما سأحاول الرجوع إلى مصادر أخرى تعرض لهذه القصة وأربط بينها، واستخرج ما يمكن استخراجه منها، ولعل غيري ممن عاصر هذه القصة أو أتيج له أن يقف على جوانب منها يستطيع أن يلقي بعض الأضواء عليها، القصة وقعت بين وال عثمانى وفتاة بغدادية، أما الوالي فهو (ناظم باشا) الذي حكم ولاية بغداد العام 1910م<sup>(42)</sup>.

فاستطاع بما يملك من صلاحيات واسعة تختلف عن أسلافه من الولاة، وبما يتمتع به من نفوذ شخصي أن يسيطر على بغداد، ويعيد الأمن إلى ربوعها بعد أن حرمت منه زمنا طويلا، بحيث غدت في عهده آمنة لا تخشى ما كانت تخشاه من سلب ونهب، تتعرض له بين وقت وآخر، ويثير فيها الرعب والفرع<sup>(43)</sup>. أما الفتاة البغدادية (سارة) بنت (اوانيس اسكندريان) أحد وجوه الأرمن في بغداد التي كانت بجمالها الساحر وثرائها العريض موضع تسابق

الشباب من أبناء طائفتها يتهافت عليها الخطاب، ويتسابقون للظفر بإعجابها ، ما كان يزيد لها اعتزازاً بنفسها وثقة بأنوثتها، وفي حفلة (بالو) خيرية أعدت لإنشاء مستشفى الغرباء، وأقيمت على ظهر باخرة نهريّة حضرها القناصل وزوجاتهم وبعض العائلات المسيحية النقي (ناظم باشا) لأول مرة مع (سارة)، ووقع نظره عليها، وهي في عمر الصبا خدعه جمالها، وأخذ منظرها فتساءل من تكون هذه الفتاة ؟ حتى إذا بلغ أنها بنت أخ (سيروب اسكندريان) الذي عينه مديراً للإدارة النهريّة أسرع بالتعريف إليها وعبر عن إعجابه بها يقتضيه المقام من (لباقة والظرف)، وعبر ما لفت أنظار الحاضرين إلى هذه العناية التي اسبغها الوالي على الفتاة<sup>(44)</sup>. وكانت هذه الحفلة جديدة على أهل بغداد من حيث التنظيم على ظهر باخرتين مزينتين بالأضواء والأعلام، ومن حيث الجو الاجتماعي الجديد الذي يضع لأول مرة النساء والرجال معا. وقد تناقل البغداديون في مجالسهم أخبار هذه الحفلة بدهشة وفضول، وأسهمت صحافة بغداد بالحديث عنها، فنوهت جريدة صدى بابل بها، وتحدثت غير مرة عن تلك الحفلة بإعجاب شديد، في حين لم تخف جريدة (الرقيب) تبرمها بما وقع خلال تلك الحفلة من (رقص) و(غناء) .

ويبدو أن تلك المقابلة قد تركت في نفس سارة أثراً شجعها على طلب مواجهة الباشا لتعرض عليه مشكلتها التي كانت تتلخص في رغبتها بعزل عمها من الوصايا اعتقاداً منها أنه وأولاده يعبثون بأموالها، ونصب المطران بدلاً منه... وقد عجزت من المراجعة للدوائر من دون أن تتوصل إلى شيء يطمئنها<sup>(45)</sup>.

وتسربت أنباء غرام الباشا إلى أوساط العامة في بغداد، فوجدوها فرصة ثمينة لهم ليحوكوا المبالغات والأساطير حول القصة، ويجعلوها على شاكلة ألف ليلة وليلة. وكان الحديث يدور أول الأمر همساً، ثم صار الناس يجاهرون به أخيراً، انتشرت الأغاني والبسات التي تتضمن إشارات غير

مباشرة بشأن سلوك الباشا العاشق، وأخيراً استطاعت سارة خاتون أن تهرب من بغداد متنكرة، إذ أفلتها إحدى بواخر لنج إلى البصرة، ثم إلى بوشهر، ثم إلى باريس عن طريق بومبي ساعد في هربها القنصل الروسي في البصرة، والمقيم البريطاني في بوشهر السير برسي كوكس<sup>(46)</sup>.

## ثانياً : عزل ناظم باشا ومقتله في 22 تموز 1912

في 17 آذار (1911م) ورد الأمر من اسطنبول بعزل (ناظم باشا) من ولاية بغداد، ولم يكذ الخبر يشيع في بغداد حتى هب أنصار (ناظم باشا) فنظموا مظاهرة لتأييده قيل إن عدد المشاركين فيها بلغ عشرين ألفاً، وهو رقم مبالغ فيه، إنما هو على أي حال يدل على أن المظاهرة كانت ضخمة<sup>(47)</sup>.

يقول (علي ظريف الأعظمي) : ولما شاع خبر عزله في بغداد ثارت العامة بإيعاز بعض الأشراف الذين كانوا من حزبه، وقام غوغاء الناس يطلبون إبقائه، وهاجوا وماجوا ثم ضربوا الطبول، وذهبوا بمجموعهم إلى داره وأركبوه عربة، وسحبوها به وهم ينادون تارة (هذا والينا)، وتارة (الله ينصر دولتنا ناظم باشا والينا) حتى وصلوا به إلى السراي وأقعدوه في محله ثم ساروا إلى دائرة البرق والبريد وتجمعوا فيها فضلوا يبرقون إلى العاصمة يطلبون إبقائه باسم الألواف من الناس ودام الحال طول النهار...<sup>(48)</sup>.

واستمر التوتر في بغداد ثلاثة أيام، كما أرسل عدد من الضباط فيها برقيات إلى اسطنبول يهددون بالاستقالة الجماعية احتجاجاً على عزل ناظم باشا فلم ينفع ذلك شيئاً، وورد الأمر من اسطنبول بإنابة أعمال الولاية وكالة إلى أمير اللواء (يوسف اكاه باشا)، وعمد هذا إلى استعمال الشدة في قمع المظاهرات وزج القائمين بها في السجن، فهدأت الحالة، واخلد الناس إلى السكون<sup>(49)</sup>. وفي صباح 20 آذار 1911 ركب (ناظم باشا) باخرة من بواخر لنج متوجهاً إلى البصرة، ومن هناك ذهب إلى اسطنبول عن طريق بومبي، ولم ينس في أثناء مروره بمدينة بومبي أن يسأل عن حبيبته سارة عسى أن يحظى

بلقائها فلم يوفق<sup>(50)</sup>. وقد تولى (ناظم باشا) وزارة الحربية عندما تسلم الائتلافيون الحكم في 22 تموز 1912، وقُتل بعد أشهر معدودة. وقد أشار الشاعر (جميل صدقي الزهاوي) في قصيدة نظمها في إثر عزل (ناظم باشا) ذمًا له وشماته به، وهي كانت بعنوان (طاغية بغداد) وفيما يأتي أبيات منها :

رام هتكاً لما تصون فتاة      كسبت في أمر العفاف اشتها را  
بنت قوم لم يدنس العرض منهم      بقبيح هم من سراة النصارى  
أيها المصلح الكبير أهذا      ما يسميه بعضهم اعمارا  
يا مهين العراق هل كنت تدري      أن أهل العراق ليسوا غيارى  
سد بعيدا إلى سلانيك عنا      إن فيها كواعباً أبكارا<sup>51</sup>

روعت بغداد بعزل والي بغداد (ناظم باشا)، وقد وقع هذا النبأ وقوع الصاعقة على أهل بغداد، فقامت المظاهرات وكثرت الاحتجاجات من أهل بغداد وفي مقدمتهم الوجيه (عبد القادر باشا الخضير)، وقد ضحى بمال كثير وهو في دائرة البرق والبريد يخابر اسطنبول، ويندد بعزل هذا الوالي المصلح وكان الوسطة بينه وبين الحكومة في اسطنبول مبعوث الحملة العلامة المرحوم السيد (مصطفى نور الدين الواعظ)، الذي بذل كل ما في وسعه في بقاء (ناظم باشا) واليا على بغداد، ولكن إرادة الباب العالي في اسطنبول أصرت على عزله. وفي يوم الجمعة 16 ربيع الأول سنة 1329 هـ يقابلها سنة (1911م) أودعت وكالة ولاية بغداد إلى الفريق (يوسف باشا) بناءً على عزل الوالي (ناظم باشا)، وبقي السبب في عزل هذا المصلح الكبير سرّاً لم تشر إليه المصادر<sup>(52)</sup>.

لقد تكاثرت الأقوال وتباينت الحجج فمن قائل يقول أن عزله كان إرضاءً للحكومة الانكليزية لهد قنصليتها، وآخر يقول من ازدياد الشغب الذي حصل عليه من جراء قضية (سارة خاتون) بنت (أوانيس) اسكندر الأرمنية. وفي يوم الثلاثاء صباح 19 ربيع الأول سنة 1329 هـ يقابلها سنة 1911م غادر (ناظم باشا) بغداد قاصداً اسطنبول وهو يقول :

لا تسلم كفي إذا السيف نبا      صحنى منا العزم والدهر أبى<sup>(53)</sup>.

## مقتل ناظم باشا

وبعد وصول ناظم باشا إلى اسطنبول، ولأمر يريده الله عين وزيراً للبحرية خلفاً للمرحوم (محمود شوكت باشا)، شقيق الاستاذ (حكمت سليمان)، ولم يكد (ناظم باشا) يتمتع بالحكم حتى ناله القدر المحتوم وفي 15 صفر سنة 1331 هـ يقابلها 1913م من كانون الأول، اغتيل فشق نعيه في جميع الممالك التركية عامة، وبغداد خاصة، وبكاه الكبير والصغير، لما له من المحبة في قلوب أهل بغداد، وراثه الشاعر (عبد الرحمن البناء) بقصيدة بعنوان (شهيد الحق)، وقد أرخ بها عام وفاته وهي :

بكينا دما لا بالدموع السواجع      عليك شهيد الحق يا خير ناظم  
بكينا فابكينا العداة كرامة      عليك نكاء المجد بدر الأكارم<sup>(54)</sup>

## الخاتمة

لعل أبرز ما توصل إليه البحث هو أن الحقبة الزمنية التي عاش فيها ناظم باشا لولاية عثمانية هي بغداد، كانت حقبة مليئة بالأشواك من خلال التدخلات البريطانية في شؤون الولاية، وشؤون الباب العالي بالذات، وبالرغم من الاضطرابات التي كانت تعيشها المنطقة في هذه الحقبة الزمنية، فإن الوالي (ناظم باشا) عندما جاء إلى بغداد في العام 1910 قد أثبت للأصدقاء والأعداء بأنه شخصية قوية قادرة على تجاوز الصعاب، ولاسيما أن العراق كان دائم الثورات ضد السلطة العثمانية، فقد كان (ناظم باشا) عسكرياً نظم الجيش ورتب جنوده وزوده بالأسلحة، وأعاد تدريبه تدريباً على وفق الأنظمة الحديثة من خلال إجراء المناورات العسكرية التي كان يجريها في مناطق خارج بغداد، والتي كان لها الأثر في إخماد الفتن وتخويف العصاة من الأتقياء وقطاع الطرق، وثورات العشائر، وكذلك كان له الدور البارز في إجراء إصلاحات عمرانية في مجال الطرق وبناء السدود وتنظيم العمل البلدي. وقد ورد في المراجع عن مدى تعلق أهل بغداد فيه، ولاسيما عند نقله من ولاية

بغداد ومقتله في اسطنبول، إذ رثاه الشعراء والأدباء وبكاه الوجهاء والرؤساء حتى أطلقت عليه المراجع التاريخية بأنه الشخصية البارعة الثانية بعد المصلح الأول (مدحت باشا)، وكانوا ينعثونه بمدحت زمانه.

ومن الاستنتاجات الأخرى هي:

1- أهمية العراق بولاياته الثلاث بغداد و الموصل والبصرة بما يتمتع به من موقع استراتيجي بالنسبة لمركز الدولة العثمانية (استانبول) إذ يعدّ العمق السوقي لها.

2- كذلك أهمية العراق من الناحية الاقتصادية بالنسبة للدولة العثمانية من خلال ما يمتلكه من أرض صالحة للزراعة ومياه دجلة والفرات، وهذا ما يعود بموارد اقتصادية مادية كضرائب و مواد غذائية تعود بالفائدة على عموم مراكز الدولة، الأمر الذي دعا بالدولة العثمانية إلى التمسك به، وتعيين الولاة الأكفاء والاقوياء عليه، ومنهم (ناظم باشا).

3- من الاستنتاجات الأخرى هو ثورات العشائر العراقية المستمرة ضد الدولة العثمانية وفي جميع أنحاء العراق، الأمر الذي دعا السلطة العثمانية الى ارسال (ناظم باشا)، وهو قائد عسكري بالدرجة الأساس، وإسناد الولاية له فضلاً عن قيادة الجيش وهذا الأمر يعدّ أمراً خطيراً أقدمت عليه السلطة.

4- أيضاً كان اختيار الوالي (ناظم باشا) لإدارة العراق مدنيا بوصفه والياً لبغداد وقائداً للجيش في آن واحد، نابع من حاجة العراق لوال قوي وشجاع. كما وصفته المراجع لما يمثله العراق في تلك الحقبة فقد أثبت أنه مصلح وشجاع بقراراته الجريئة التي بموجبها عمّ الأمن والاستقرار. هذا والله ولي التوفيق و السداد.

- (\*) الانكشارية : مصطلح عثماني يعني الجيش الجديد، وهم من أبناء رعايا السلطان المسيحيين الذين جلبهم السلطان العثماني اورخان (1329 - 1359)، إذ جند الفأ من هؤلاء خلال الفتوحات الأولى للدولة العثمانية، ووضع لهم قانوناً خاصاً نظم العلاقة بينهم كما نصت على الطاعة المطلقة لأوامر السلطان الثاني، انظر : أحمد جواد، التاريخ العسكري العثماني، استانبول، 1299 هـ، ص 91 .
- <sup>1</sup> هاشم: هشام سوادى ، تاريخ العرب الحديث، مطابع دار الفكر، عمان، 2009م، ص 80 .
  - <sup>2</sup> انظر : أحمد: إبراهيم خليل ، تاريخ الوطن العربي الحديث، مطبعة جامعة الموصل، الموصل، 1987م، ص 23 .
  - <sup>3</sup> م . ن ، ص 24 .
  - <sup>4</sup> انظر: العزاوي: قيس جواد ، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مطبعة المتوسط، ط2، بيروت، 2003، ص 52 .
  - <sup>5</sup> هاشم: هشام سوادى ، تاريخ العرب الحديث ، المصدر السابق، ص 85 .
  - <sup>6</sup> الجميل: سيار كوكب ، تاريخ العرب الحديث، الموصل، 1991م، ص 325 .
  - <sup>7</sup> الحصري: ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط2، بيروت، 1960م ، ص ص 87 - 88 .
  - <sup>8</sup> الدملوجي: صديق، مدحت باشا، دار الحرية، بغداد، 1953م، ص 63 .
  - <sup>9</sup> انظر : سلمان: محمد عصفور، العراق في عهد مدحت باشا، مؤسسة مصر مرتضى للطباعة، بغداد، 2008، ص 182 .
  - <sup>10</sup> م . ن، ص 89 .
  - <sup>11</sup> م . ن، ص 90 .
  - <sup>12</sup> سلمان: محمد عصفور ، العراق في عهد مدحت باشا ، ص 90 .
  - <sup>13</sup> م.ن، ص 93 .
  - <sup>14</sup> العلاف: عبد الكريم، بغداد القديمة، مطبعة المعارف، بغداد، 1960م، ص 177 .
  - <sup>15</sup> العزاوي: عباس، تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج8، ط1، مطبعة شريعت، قم، 2004م، ص 191.
  - <sup>16</sup> م . ن ، ص 192 .
  - <sup>17</sup> العزاوي: عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، المصدر السابق، ص 193 .
  - <sup>18</sup> م . ن ، ص 194 .
  - <sup>19</sup> العلاف: عبد الكريم ،بغداد القديمة ، المصدر السابق، ص 177 .
  - <sup>20</sup> الوردي: علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج3، مطبعة أسوة، قم، 2004، ص 193 .
  - <sup>21</sup> العزاوي: عباس، تاريخ العراق بين احتلالين ، المصدر السابق، ص 196 .
  - <sup>22</sup> م . ن ، ص 197.
  - <sup>23</sup> م . ن ، ص 198 .
  - <sup>24</sup> العزاوي: عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، المصدر السابق ، ص 197 .



- 25 العلاف: عبد الكريم ، بغداد القديمة ، المصدر السابق، ص178 .
- 26 الوردي: علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، المصدر السابق، ص198 .
- 27 إسماعيل : خالد محسن ، قلم وزير، مطبعة العمال، بغداد، 1970، ص37 .
- 28 الوردي: علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، المصدر السابق، ص197 .
- 29 القصاب: خالد عبد العزيز، مذكرات عبد العزيز، ط1، مصطفى قانصو للطباعة، بيروت، 2007، ص83 .
- 30 العلاف: عبد الكريم ، بغداد القديمة ، المصدر السابق، ص179 .
- 31 م . ن ، ص180 .
- 32 م . ن ، ص180 .
- 33 م . ن ، ص181 .
- 34 م . ن ، ص181 .
- 35 م . ن ، ص180 .
- 36 الهلالي : عبد الرزاق ، الزهاوي بين الثورة والسكوت، مطبعة العدالة، بيروت، 1960، ص43 .
- 37 الوردي: علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، المصدر السابق، ص203 .
- 38 العزاوي : عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، المصدر السابق ، ص237 .
- 39 م . ن ، ص222 . نقلاً عن جريدة صدی بابل، العدد 70 ، لسنة 1328 هـ .
- 40 العمري : خيري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، دار الهلال، القاهرة، 1969، ص15.
- 41 الوردي: علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، المصدر السابق، ص205 .
- 42 العمري : خيري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث ، المصدر السابق، ص17 .
- 43 م . ن ، ص18 .
- 44 م . ن ، ص19 .
- 45 العمري: خيري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، المصدر السابق، ص19 .
- 46 الوردي: علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، المصدر السابق، ص205 .
- 47 م . ن ، ص206 .
- 48 العلاف: عبد الكريم ، بغداد القديمة ، المصدر السابق، ص180 .
- 49 الوردي: علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، المصدر السابق، ص205 .
- 50 العزاوي : عباس، تاريخ العراق بين احتلالين ، المصدر السابق، ص207 .
- 51 الوردي: علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، المصدر السابق، ص206 .
- 52 العلاف: عبد الكريم ، بغداد ، المصدر السابق، ص180 .
- 53 م . ن ، ص181 .
- 54 م . ن ، ص181 .

## المراجع

- 1- أحمد: إبراهيم خليل ، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، الموصل، 1987.
- 2- إسماعيل : خالد محسن ، قلم وزير، مطبعة العمال، بغداد، 1970 .
- 3- الحصري : ساطع ، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط2، بيروت، 1960 .
- 4- الجميل : سيار كوكب ، تكوين العرب الحديث، الموصل، 1990 .
- 5- جواد: أحمد ، التاريخ العسكري العثماني، استانبول، 1399 هـ .
- 6- الدملوجي : صديق ، مدحت باشا، دار الحرية، بغداد، 1953 .
- 7- سلمان : محمد عصفور ، العراق في عهد مدحت باشا، مؤسسة مصر مرتضى للطباعة، بغداد، 1990 .
- 8- العمري : خيرى ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، دار الهلال، القاهرة، 1969 .
- 9- العزاوي : عباس ، تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج8، مطبعة شريعت، قم، 2004.
- 10- العلاف : عبد الكريم ، بغداد القديمة، مطبعة المعارف، بغداد، 1990 .
- 11- العزاوي : قيس جواد، الدولة العثمانية، قراءة جديدة العوامل والانحطاط، مطبعة المتوسط، بيروت، 2003 .
- 12- القصاب : خالد عبد العزيز ، مذكرات عبد العزيز القصاب، قانسوا للطباعة، بيروت، 2007 .
- 13- هاشم : هشام سوادى ، تاريخ العرب الحديث، مطابع دار الفكر، عمان، 2009 .
- 14- الهلالي : عبد الرزاق ، الزهاوي بين الثورة والسكوت، مطبعة العدالة، بيروت، 1960 .
- 15- الوردى :علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج3، مطبعة أسوة، قم، 2004 .